

## تصدير

يجعل العلماء لك لشعب خصائص تميز تفكيره عن عداه، وهم يردون هذه الخصائص إلى عوامل مختلفة أهمها المحيط الجغرافى وما ينشأ عنه من تكيف الحياة، فأما حياة استقرار ورغد تجعل للعب حظًا من التفكير. المنظم ونصيًّا من الترف العقلى، وإما حياة بداءة وشظف تلهى الناس عن كل ذلك، وتصرفهم إلى السعى وراء المادة والكفاح فى سبيلها كفاحًا عن الحياة.

وتاريخ الفكر العربى فى الجاهلية قليل الغناء، فلا ينسب إليهم شىء من النظر الشامل فى أمور الكون، ولا يعرف لهم مذهب فلسفى معين، بل كل ما يرى عنهم فى هذا يكاد لا يتعدى ما يذكر للكهان والعرافين من أقوال مسجوعة تشبه الأحاجى والألغاز.

ولكن ما من شعب يعيش وحده! ففى أطراف الجزيرة أمم تجاور العرب ولها نصيب متفاوت من الحضارة والتفكير، فالفرس والهنود والروم كان بينهم وبين العرب صلات، ودخل اليهود الجزيرة وانتشروا فيها، وسادت النصرانية فى نجران، واتصل العرب بكل أولئك فتزاوجت الأفكار، ولكن وثنيهم ظلت هى الغالبة، وظلت آلهتهم تتمثل فى الشمس والقمر واللات والعزى ومناة وغيرها.

ولم تكن هذه الوثنية تتألف من معتقدات عامة شاملة، ولا هى دين له صورة واضحة المعالم، فاختلفت أقوالها فى الخالق، هو تارة واحد، والآلهة المتعددة وسائل لا غير، وهو تارة آلهة كثيرون لكل منها تفوذ بعينه.

وهي تضطرب كذلك في أمر المعاد، تظهر حيناً دهرية تقول لا يهلكنا إلا الدهر ولا تسلم بالبعث والنشور، وتظهر حيناً مؤمنة بالشواب والعقاب، وتضع الأعمال في كتاب مدخر ليوم الحساب.

ودين هذا شأنه ليس له من القوة ما يكفي أوضاع الاجتماع، ولهذا ظل عرب الجاهلية قبائل لكل منها كيانها، وافتقرت هذه القبائل إلى الوحدة التي تكون الأمم وتنهض بالشعوب، فلما جاء الإسلام جمع شتاتها وألف بينها وجعل منها أمة متحدة في غاياتها الدينية وأغراضها الدنيوية.

واشتمل التنزيل على مبادئ عامة كونت النظام العقلي الإسلامي، وتضمنت هذه المبادئ تحديد الذات الأقدس، وتعيين صفاته، وانفراده بالملك كما اشتملت على حدود المعاملات وأنواع العبادات، وعلى شرح الثواب والعقاب في دار البقاء، وهي فوق هذا كله تحث على إنعام النظر في ملكوت السموات والأرض.

وفي عهد النبي ﷺ كان الرعيل الأول من المسلمين يكرهون الجدل في الدين ويتقبلون ما يجيء به التنزيل في وصف الله سبحانه دون أن يسألوا النبي عن معنى شيء من ذلك، كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج، وكما سألوه عن أحوال الجنة والنار.

ولما توفي الرسول اتبع المسلمون فيما لم يرد فيه نص من القرآن، ثم اتبعوا الاجماع، ثم عمدوا إلى الاجتهاد أى إلى استعمال الرأى والقياس في الشئون العملية وهي موضوع علم الفقه. وبهذا نشأت المذاهب على حظوظ متفاوتة من استعمال الرأى والقياس.

وانتقل النظر العقلي بعد ذلك إلى العقائد، وسمى هذا النظر علم الكلام أو علم التوحيد.

وكان من نتائج الجدل في العقاد أن تشعب المتكلمون إلى فرق.

والجدل في العقائد نشأ أن تشعب المتكلمون إلى فرق.

والجدل في العقائد نشأ أولاً في أحضان السياسة، وترعرع في حماها، وتأثر بها زمناً طويلاً. فأول خلاف خطير عرفه المسلمون كان خلاف الإمامة، "وما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية، مثل ما سل على الإمامة في كل زمان"، ذلك أنه عند وفاة الرسول لم يكن قد أوصى بمن يخلفه فاشتد الجدل بين المسلمين فيمن تكون الخلافة. أفي الأنصار أم في المهاجرين، أم في بيت رسول الله، أم يختار الخليفة من بين المسلمين جميعاً؟

وهل الإمامة تكون بالانتخاب والاختيار أم بالنص والتعيين، وما هي شروط الإمامة؟ وكمن الخلاف أثناء إمامة أبي بكر وعمر وعثمان، ولكن النفوس انطوت على ما فيها. فلما كان مقتل عثمان ثارت الفتنة من جديد واستعر أوارها. وقوى ساعد القائلين باختيار الخليفة من بيت الرسول فبايعوا على بن أبي طالب.

على أن هذه البيعة لم تلق تأييد المسلمين جميعاً، وهب معاوية يطالب بدم عثمان، ونشبت الحرب بينه وبين علي، ثم دعا علياً إلى التحكيم فقبله، فخرجت على علي طائفة من أنصاره قالوا: لا حكم إلا الله، وحكم الله في الأمر واضح، وقبول علي للتحكيم خطأ لأنه يتضمن الشك، ومرتكب الخطيئة في رأيهم كافر يجب قتاله، ولهذا خرجوا على علي وقتلوه، وهؤلاء هم الخوارج.

وكان لعلى شيعته، بدأوا بالدعوة إلى حقه في الخلافة دون سواه، ثم تطورت هذه الدعوة إلى مذهب في الإمامة يقول إنها ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، بل هي ركن الدين ودعامته فلا يجوز لنبي تفويضها إلى الأمة تختار من تشاء وتترك من تشاء. ثم زعموا أن النبي أوصى بها لعلى، وذكروا في تأييد ذلك نصوصاً أنكرها أهل السنة.

وانقسم رأى الشيعة في بيعة أبي بكر وعمر وعثمان، فقال بعضهم إنهم أخطأ لأنهم اغتصبوا حق على في الإمامة وهو أفضلهم ولا تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

وقال الغلاة منهم بتكفير الأئمة السابقين، وألهموا علياً وجعلوا له العصمة ونسبوا له علم الغيب، ومنهم من قال إن علياً لم يمت وإن له رجعة يملأ بها الأرض علماً ونوراً، كما قالوا: إن للقرآن معنى ظاهراً ومعنى باطناً، وإن الإمام وحده يعلم علم الظاهر وعلم الباطن، ويعلم الناس في وقته ما يستطيعون فهمه من أسرار الكون، ثم يورث هذه العلوم من بعده.

والخلاف بين الشيعة والخوارج في الإمامة أدى إلى الكلام في تحديد معنى الكفر والإيمان، وهو الإيمان والإسلام شيء واحد، أم هناك فرق بينهما؟ وهل الإيمان يزيد وينقص، أم هو شيء ثابت لا يزيد ولا ينقص؟

وكان الخوارج يرون أن الإيمان معرفة بالله ورسله وأداء للفرائض وكف عن الكبائر. ومرتكب الكبيرة في رأيهم كافر.

والشيعة جعلوا الاعتقاد بالإمامة على طريقتهم ركنًا من أركان الدين فمن لم يسلم بها كان كافرًا.

وكانت طائفة من المسلمين قد وقفت بعيدة عن الخلاف السياسى لا تقطع فيه برأى، وإنما ترجى الأمر إلى الله بحكم فيه بما شاء.

ومذهبهم فى الكلام كمذهبهم فى السياسة، فالإيمان عندهم إنما هو معرفة الله تعالى بالقلب لا غير، وهم يقولون لا تضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة، وهؤلاء هم المرجئة.

فما هو الكفر، ما هو الإيمان؟ وهل الإيمان إقرار باللسان، أم اعتقاد بالقلب، أم إقرار باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح؟

وما حكم مرتكب الكبيرة، أمؤمن هو أم كافر؟ وما مصيره فى دار البقاء؟ وما هو المقصود بالوعد والوعيد؟

والبحث فى هذه المسائل أدى إلى الكلام فى الجبر والاختيار.

هل الإنسان مسير أم مخير، أنحن أحرار الإرادة نعمل ما نشاء ونترك ما نشاء؟ أم أعمالنا آثار لعلل خارجة عن إرادتنا؟

وإذا كانت أعمالنا آثاراً لتلك العلل فما حكمة الثواب والعقاب فى دار البقاء؟

والجبر والاختيار من الأمور التى حيرت عقل الإنسان فى أطواره المختلفة. بدأ الكلام فيهما فى صدر الإسلام، ولما فتح المسلمون الشام واتصلوا بالمسيحيين هناك قامت بينهم مناقشات فى العقائد خلقت للمسلمين أفقاً للتفكير جديداً.

وكان ليوحنا الدمشقى - وهو من كبار مفكرى الكنيسة - تأثير كبيرة فى تلك الحركة الفكرية إذ صنف كتاباً جعله مناظرة بين مسلم ومسيحى وعرض

فيه لكثير من المبادئ المسيحية كالإرادة الإلهية وتعلقها بالرحمة العامة التي يترتب عليها سعادة البشر على السواء، والقول بحرية الإرادة الإنسانية.

ووجدت هذه الأقوال مكاناً خصيصاً في الشام ولكنها لقيت في سواد العراق أشد معارضة إذ قاومها الحسن البصرى وكان يكره تحكيم العقل في شئون الدين ويستمسك بنصوص الكتاب والسنة.

على أن بعض تلاميذ الحسن لم يذهبوا مذهبه بل جعلوا للنظر العقلي مكاناً في أمور العقائد.

جاء رجل إلى الحسن البصرى يسأله عن أمر مرتكب الكبيرة. أكافر هو على رأى الخوارج أم مؤمن على قول المرجئة؟

وأطرق الحسن يفكر، ولكن تلميذه واصل بن عطاء انبرى فقال هو في منزلة بين المنزلتين، ثم اعتزل واصل مجلس أستاذه وانتحى مكاناً يعلم فيه الناس فقال الحسن: لقد اعتزلنا واصل.

هذه القصة لا يكاد يخو منها كتاب من كتب الكلام، وهم يجعلون قول الحسن لقد اعتزلنا واصل سبباً في تسمية تلاميذه باسم المعتزلة.

وهناك فروض أخرى لسبب هذه التسمية ليس هنا مقام الإفاضة فيها لأن الذى يعيننا هو تلمس الفروق بنى تفكير المعتزلة وغيرها من الفرق.

قلنا أن المتكلمين اختلفوا فى حكم مرتكب الكبيرة فبعضهم قال بتكفيره وقال آخرون بغير ذلك، أما المعتزلة فقالوا مرتكب الكبيرة لا هو بالمؤمن ولا هو بالكافر وإنما هو فاسق أى فى منزلة بين المنزلتين، وعرضوا للكلام فى الجبر والاختيار فذهبوا إلى أن الإنسان يخلق أفعاله وأنه يستطيع بعقله تمييز

الحسن والقبیح من الأفعال وإن لم يرد بهما شرع، فهو إذن مسئول عن أفعاله. ولهذا يثاب عند الإحسان ويعاقب عند الإساءة.

وكانت طائفة من المسلمين قد ذهبت إلى القول بأن الله تعالى جسم واستشهدوا بما ورد في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية مما يثبت لله صفات كالسمع والبصر والكلام والقدرة والحياة والعلم وغيرها، أو يجعل له بعض الأعضاء كاليد والوجه والعين.

واختلف المسلمون في فهم هذه الآيات والأحاديث وفي تأويلها، أما أهل السنة فكانوا يقبلون الكلام على ظاهره من غير محاولة لتأويله.

وأخذ المجسمة كأصحاب هشام بن الحكم والكرامية بظاهر اللفظ فأثبتوا لله صورة وأعضاء وجوارح وزعموا أنه جسم له حد ونهاية.

وذهب الأشاعرة ومن تأسى بهم إلى أن الصفات ثلاث أنواع: ذاتية، ومعنوية، وفعلية.

فالذاتية هي التي تدل على الذات كالواحد والغنى الأول والآخر والمعنوية هي التي تدل على معان قائمة بذاته تعالى كالخى والقادر والعالم والسميع.

وهذان القسمان يشملان الصفات الأزلية القديمة. أما القسم الثالث فيشمل الصفات الدالة على صدور أثر من الآثار عن قدرة الله تعالى كخالق والرزاق ونحو ذلك. وكل اسم مشتق من أفعاله لم يكن موصوفاً به قبل وجود أفعاله.

ورأى المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة أن "القدم" أخص وصف لله

لا يشاركه فيه ذات ولا صفة، فإثبات صفات قديمة لله تجعل له شريكاً في القدم ولهذا أنكروا الصفات، وهم لا يريدون بذلك نفى القدرة أو العلم أو الحياة عن ذات الله تعالى، وإنما يقولون أن الله عالم قادر حتى بنفسه لا يعلم وقدرة وحياة. وأولوا ما ورد في الآيات والأحاديث من الصفات فقالوا إن اليد معناها النعة والعين معناها العلم والوجه معناه الذات.

هذه المسائل وأشباهاها كانت أصول الخلاف بين الفرق الإسلامية. وأنت ترى أنها مناقشات في العقائد الدينية وفي تصورهما على الوجه الصحيح الذي قصده الشارع كما أنها مناقشات في نظام الحكم وفيمن تستند إليه مقاليد الأمور.

والحجة في مثل هذه المسائل كانت تعتمد على الدليل النقلى ولهذا استشهدت كل فرقة بآيات من الكتاب أو أحاديث للرسول تدلل بها على صواب رأيها وفساد رأى خصومها.

وظل الأمر على ذلك إلى أن اتسعت الفتوحات، وأشرقت نهضة المسلمين في العصر العباسى، واشتغل الخلفاء والأمراء بالعلم والأدب، وأطلقت قيود الفكر، ونقلت المصنفات من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية إلى اللغة العربية، وكان من بينها كتب الفلسفة والرياضة والمنطق. وعكف المسلمون على دراسة المنطق والإلهيات فوقفوا على قواعد للجدل تخالف ما ألفوه وعلى مذاهب فلسفية لم يكن للعرب بها علم من قبل.

وتنبه علماء الكلام إلى أن هذه المذاهب فيها أمور تصادم الدين فتعرضوا للرد عليها، وفيها آراء يمكن أن يستفاد بها في نصره الدين فاصطنعوها، بل إن كبار مؤلفيهم ذهبوا إلى ضرورة المباحث الفلسفية العامة للمشتغلين بعلم الكلام فجعلوها مقدمات لدراسته ومزجوا الفلسفة بالدين.

تراهم مثلاً يقدمون الكلام فى نظرية المعرفة فيتكلمون عن العلم، وهل هو ضرورى أو مكتسب، ويقسمون الضرورى إلى الوجدانيات والحسيات والبدهييات، ويظهرون كيف يغلط الحس فى الجزئيات، ثم يوردون أقوال القادحين فى البديهييات وكيف أن العقل يجزم بصحة دليل وبما يلزمه من النتيجة ثم يظهر خطاه، ويميزون النظر الصحيح والنظر الفاسد، وهل النظر الصحيح يفيد العلم فى كل شيء؟ وهل هو يفيد الظن؟ وما هى ضوابط الاستدلال؟

ثم يبحثون بعد هذا فى الوجود والماهية، وفى الوجود والإمكان، والقدم والحدوث والوحدة والكثرة والعلة والمعلول، والأعراض والجواهر، والحركة والسكون والزمان والمكان، والخلاء، والجوهر الفرد، والصورة والهولى، وغير ذلك من المسائل الفلسفية الخالصة.

وليت الأمر وقف عند هذا، بل إنهم - كما يقول ابن خلدون فى مقدمته - جعلوا آراءهم فى هذه المسائل "تبعاً للعقائد الإيمانية فى وجوب اعتقادها لتوقف الأدلة عليها".

والدين يفتقر إلى العاطفة أكثر من افتقاره إلى العقل، والنفس الإنسانية قد تطمئن إلى شىء تجد راحتها فيه دون أن تلقى بالاً إلى الأدلة والمناقشات، وقد تتذوق أحوالاً لا يهدى إليها العلم والنظر.

ولهذا لم تكن مذاهب المتكلمين التى تعتمد على الأدلة النقلية تارة وعلى الأدلة العقلية تارة أخرى لترضى سائر الناس وبخاصة أهل التقى والصلاح، فاتجهوا وجهة أخرى اطمأنت إليها نفوسهم وسلكوا سبيل التصوف والزهد.

وأصل التصوف العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه. والمعرفة عند المتصوفة إنما هي نتيجة الطاعة والإخلاص، فهي لا تتوقف على النظريات العقلية ولا المناقشات الكلامية، وهم يقولون أن الإنسان يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك. وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف، وإدراك للأحوال القائمة بالنفس من فرح وحزن وأمثال ذلك. وهذه الإدراكات إنما تنشأ بالمجاهدة والعبادة وحاسبة النفس. فالمرید في مجاهدته وعبادته تنشأ له أحوال، وهي إما أن تكون عبادة فترسخ وتصير مقاماً للمريد، وإما أن تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو غير ذلك من المقامات، ولا يزال المرید يرقى بالمجاهدة من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى مقام التوحيد والعرفان فيدرك من حقائق الوجود ما لا يدركه سواه.

وقد ذهب المتصوفة إلى أنه لا فاعل في كل شيء إلا الله، وزاد الغلاة منهم على هذا بان قالوا " لا موجود في كل شيء إلا الله " ونشأ عن هذا مذهبهم في وحدة الوجود الذي جعل العالم خيالاً لا حقيقة ووحيد بين ذات الله تعالى وذات الإنسان، ولهذا نجد الحلاج يقول: " ما في الجبة إلى الله " .

ويقول أيضاً:

أنا من أهوى ومن أهوا أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ولا يسلم الصوفية بوجود شيء بعد الذات الإلهية سوى ما يختلف على نفوسهم من أحوال الشوق والوجد إلى الله. وحقيقة النفس عندهم هي

حالات أو أنواع من الشعور باللذة والألم، وأهمها الحب الذي يسمو بنا إلى الله .

وبعد

هذه مقدمة لا بد للوقوف على تيارات الفكر العربي واتجاهاته من العصر الجاهلي إلى منتصف القرن الرابع الهجري وهو الوقت الذي وجد فيه الفارابي .

فمن هو؟ وكيف تأثر بهذا العصر؟ وكيف أثر فيه؟ وما هي فلسفته التي تميز بها؟

هذا ما نحاول الآن بيانه .

\*\*\*